باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم اهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

مريم نمر مكاريوس

فراق الرفاق

بقلم السيدة بانوت صرّوف

دموعٌ سراها الشجوُ حتى كأنها جداولُ تجري بينهنّ غروبُ
اذا ما أردتُ الصبر هاجَ ليَ البكا فؤادٌ الى اهل القبورِ طروبُ

ولكن لابدّ من كفكفة الدمع وقطع الحنين والاعتصام بالصبر الجميل ولو الى حين عساني ان انشر من صفات فقيدتنا التي تزري بالمسك عرفًا وبالندّ طيبًا ما أفي به بعض واجب الحب لها واخدم الطهر والذكاء اللذين كانت لهما مظهرًا واليهما سراجًا نيّرًا فاقول

وُلِدَت مريم نمر مكاريوس في ربيع سنة ١٨٦٠ في حاصبيا مدينة وادي التيم بسوريّا قبل حدوث المذبحة الشهيرة فيها ببضعة عشر يومًا . وتيتمت من ابيها بتلك المذبحة التي شابت لهولها الولدان فحملتها امها مع اخويها الى مدينة صيدا بعد ما فرّت بهم الى قرية عجدل شمس بقرب جبل الشيخ ثم اتت الى مدينة بيروت وهي تغذيها بالبان الحزن وتغسل وجنتيها بدموع الحسرات وقامت عليها وعلى اخويها تربيهم بما اشتهر عنها من الحكمة والذكاء الى ان بلغوا سن التمييز فادخلتهم مدارس القدس الشريف ليتعلموا فيها العلوم التي لم يكن لها (اي لامهم) حظٌّ منها لانها ولدت وربيت في عصر كان تعليم البنات محظورًا فيه بحجة انه غير لازم لهنّ ويخشى منه عليهنّ . كذا ظن اهل ذاك العصر وهو ظنٌّ اقبح من اثم . فلم تلبث الفقيدة في القدس الاّ زمانًا يسيرًا حتى اختارت لها امها مدرسة من خيرة مدارس بيروت ادخلتها اليها ولم ترضَ ان تخرجها منها قبل ان تتم دروسها كلها وتأخذ شهادتها فدرست من اللغات العربية

وفنونها الصرف والنحو والبيان والانكليزية كذلك ومن العلوم التاريخ والجغرافية والحساب والفلسفة الطبيعية والهيئة والمينيورولوجيا والفسيولوجيا وتمرنت على الاعمال اليدية من خياطة وتطريز ونحوها ونالت الشهادة المدرسية سنة ١٨٧٧ !

وكانت وهي في المدرسة مشهورة باخلاص النية وسلامة الطوية وذكاء العقل وشدة الحياء

خلقٌ كالمدام او كالرُّضاب السلسل او كالصبير او كاللباب
وحياء ناهيك من غير عيٍّ وحيًا مشرقٌ بغير نصاب

وهناك تعرَّفتُ بها وتمكَّنت بيننا المودَّة وارتبط قلبانا بربط الحب الصادق التي حاول الموت قطعها فلم يستطع ولن يستطيع . وبعد خروجها من المدرسة بقليل اقترن بها الصديق الفاضل شاهين افندي مكاريوس فانشأت له بيتاً زينته بطلعتها ودبَّرته بحكمتها وفتحت ابوابه للاصدقاء الادباء من رجال ونساء فكانوا يجتمعون على مائدتها كأنهم في نادٍ من النوادي العلمية والمحافل الادبية وهي تطربهم بعذب كلامها وتسكرهم بخمرة معانيها . ورزقها الله ثلاثة اولاد ابنين وابنة فربتهم احسن تربية وعلمت كبيرهم مبادئ العربية والانكليزية وكانت عازمة ان تعلم اخاه واخته متى بلغا سن التمييز ولكن ابتدرتها المنية قبل تحقُّق المنى فخسر اطفالها خسارة لن تُعوَّض

وفي غرَّة سنة ١٨٨٠ اتفقت مع البعض من صديقاتها وعقدن جمعيَّة ادبيَّة سمَّينها باكورة سورية وانضمَّ اليهنَّ عددٌ من السيدات المهذبات فكنَّ يتناوبن الخطب والمناظرات . ومن خطبها فيها خطبةٌ تاريخية انتقاديَّة في الخنساء الشاعرة العربية الشهيرة جمعت فيها ما تفرَّق في كتب الادب وشفعتها بانتقادٍ مكين يدل على توقد ذهنها ودقَّة نظرها . وقد ادرجها المقتطف في سنته التاسعة ولها ايضاً مقالة عنوانها حرارة الماء أُدرجت في السنة الثانية منه ونبذ أُخرى ورسائل ومناظرة عنوانها بنات سوريا مع جناب البكباشي الدكتور سليم موصلي ومناظرة عنوانها دفاع النساء عن النساء مع جناب الدكتور شبلي افندي شميل مؤلف الشفاء لا يزال صداها يدوي في الآذان حتى الآن . وقد كان هذان الدكتوران الفاضلان طبيبيها الخاصين حتى ساعة موتها وقد بذلا كل الجهد والعناية حفظاً لحياتها الثمينة فاعياها الداء العياء . ولها في اللطائف مقالة رنانة في حياة زنوبيا ملكة تدمر ورسائل شتى لم تطبع

وقد اقتبستُ طرفاً يسيراً من انوالها اظهاراً لسموّ افكارها وحسن اعتبارها . قالت في مطالعة النساء للقصص والكتب الفكاهية ما نصُّهُ : "نحن نميل طبعاً الى قراءة سير الناس ولذلك ترى اكثر نساء العالم يتعبسنَ جلَّ معارفهنَّ وفوائدهنَّ من قراءة الكتب التي من

هذا الباب . ولا يخفى عليكنّ ان المرأة العاقلة لا تقصد بمطالعة الروايات وسير الناس مجرّد تسلية الخاطر واشغال المخيّلة بما يبهج الاطفال ويسلي الاولاد الصغار ولكنها تقصد اولاً تحصيل الفوائد اللازمة لها في حياتها مثل معرفة الاخلاق واختلاف الاحوال وصروف الزمان والتصرّف في النوائب وفضل ممارسة الفضيلة ووخامة مرتع الرذيلة واعتبار العواطف الشريفة والاقتداء بالذين فازوا في حسن صفاتهم وكرم اخلاقهم وفازوا بجمال صبرهم وافادوا بحسن تربيتهم واهتمامهم بجبر القلوب الكسيرة وتشجيع النفوس الصغيرة وانهاض الهمم واصلاح الشؤون. هذه الفضائل وامثالها تقصدها المرأة بحكمة اولاً في مطالعة الروايات والسير وتقصد الفكاهة والتسلية ثانيًا . واني طالما وددتُ لو كان لنا نحن بنات اللغة العربية ما لغيرنا من الروايات التي اذا قرأناها لم تملّ وجوهنا حمرة الخجل ومن السير التي نجد فيها ما يوسّع العقول ويهذّب الاخلاق ويلطّف العواطف ويكمّل الآداب ويعلّم احوال العالم ويكشف لنا خبايا الطبع البشري فلم أنل المنى الاّ في قليل ما وقفتُ عليه ولم ازل اضطرُّ الى مطالعة كتب الافرنج لتحصيل ما اشتهيه من هذا القبيل مع اننا في زمان تتبارى فيه اقلام الكتّاب ويتباهى بها اولو النباهة والذكاء"

وقالت ايضًا منتقدةً اغفال ذكر الامهات من تراجم البنين والبنات ما نصه "ولم يذكر لنا المؤرخون شيئًا عن اسم امها (اي ام الخنساء) ولم يكلفوا النفس الى كلفة عن التي قاست الاهوال واحيت الليالي الطوال حرصًا على حياة بنتها وحبًّا بتربيتها واحتمال اتعابها كأنّ الأمّ شخصٌ قُدِّرَ عليه الخمول والنسيان فلا يليق ذكرها حتى مع بنائها . فابن الانصاف من ذلك وفضل البنت من نضل امها وقد قال الفيلسوف ان الباري اذا شاء ان يخلق في الارض عظيمًا خلق قبله عظيمة تلدهُ . وما ادرانا ان الخنساء لولا فضل امها لم يكن فيها فضل تشتهر به ولولا حسن تربية امها لما لما نبغت بما نبغت . نعم انها ولدت من نسل امرء القيس أشعر شعراء العرب والاقرب الى العقل ان تكون قريحتها قد اتصلت اليها بحكم الوراثة ولكنها اتصفت ايضًا بصفات ادبية اسمى من صفاتها العقليّة . وحضراتكنّ تعلمنَ ان امرء القيس لم يفق في آدابه ولو فاق الشعراء في شعره . فالمتأمّل في سيرة الخنساء يجد مندوحةً واسعة لاسناد الفضل الى امها وان يكن على سبيل الزعم والتخمين، ولو تنازل المؤرّخون الى ذكر أمّ الخنساء وصفاتها لظهر الحق وانتفت الظنون وكفى بذلك فائدة ان لم يكن من ذكر الأمّ غيرها"

وقالت ايضًا منتقدةً سكوت الكتّاب في السير والتراجم عمّا يحدث للانسان في صباهُ من الحوادث والنوادر ونحوها وهذه عبارتها "وقد ضربوا صفحًا ايضًا عن ذكر ما جرى لها في

صباها ولم يشيروا الى ايام حداثتها. والحال ان الانسان لا يستكمل الفائدة ولا اللذّة من مطالعة سير غيره الاّ متى اطّلع على احوالهم فعرف نقائصهم وفضائلهم وحسناتهم وسيئاتهم وما فاقوا فيه وما قصروا عنه وكيف طرأت عليهم التجارب والمصاعب فتخلصوا منها وتغلبوا عليها وكيف توسعت قواهم العقلية واستقامت قواهم الادبية ونمت ابدانهم واشتدّت قواهم الجسدية وما كانت نوادرهم ومزاياهم وسائر خصائصهم. وهذه الامور كلها تظهر في زمان الطفولية والصبا احسن ظهور ولذلك يجد القارئ معظم اللذّة والطلاوة — ان لم نقل معظم الفائدة ايضاً — في معرفة احوال الشخص في طفوليته وحداثته"

وقد عرّفت الزوجة الفاضلة في ردّها على الدكتور شبلي افندي شميل بقولها "فهي المعزّية الحزين المفرّجة المكروب الصابرة على مضض العيش ونغص الحياة الراضية بمشاركة الرجل في سرّائه وضرّائه الحافظة على ولائه الطالبة مسرّة الناسية نفسها في خدمته الباذلة حياتها لمسرّته وتربية عائلته الممتازة بالوداعة والعفاف والطهارة". وهذه الاوصاف قد كان دأبها في حياتها ان تستكملها واحداً بعد واحدٍ كما يعلم ذلك اصدقاؤها ومعارفها

وسنة ١٨٨١ انشأ بعض المحسنات الاميركانيات والوطنيات جمعية لتعليم النساء البائسات والتصدق عليهنّ فشاركتهنّ في هذا العمل المبرور وجعلت بيتها داراً لتلك الجمعية فكنّ يجتمعنّ فيه كل اسبوع يتعلمنّ ويأخذنّ ما يتصدّق عليهنّ به من كساء ونقود

وفي اواخر سنة ١٨٨٥ اتينا كلنا الى الديار المصرية ولما استقرّ بنا القرار عكفت على المطالعة والدرس استعداداً لعمل جديد كانت ناويةً ان تشرع فيه خدمةً لبنات عصرها لو فتح لها في الاجل. وكانت اذ ذاك اجودنا صحةً وانشطنا حركةً ولكن ماذا تنفع الصحة والبعوضة تدمي مقلة الاسد وماذا يجدي النشاط وهذا الباشلّس يدخل الابدان مع الهواء وينشب في الرئتين اظفاره وهو المنية بعينها ولا دافع له من دواء ولا رقّى

امر ربّي يقضي بما شاء م تعالى عن الخلائق سرمدْ

فأُرجعت مريضةً الى برّ الشام في الصيف الماضي ونزلت في قرية من اطيب قرى لبنان هواء وماء وانا يومئذٍ هناك انقلّب على فراش المرض والاطباء ينذرونني بالخطر لكن فسح الله لي في الاجل لاسمع باذني رنّة السهم في قلبي

ولسنا بأحيا منهمُ غير انّنا الى اجلٍ تدعى له فنجيبُ

فاقمنا على ربى لبنان نصارع الداء بجودة الهواء الى ان دخل فصل الشتاء وقال الاطباء قد ازف الرحيل ومصر مكان مثل القفيدة خير دواء فرجعنا بها الى مصر ومضينا بها الى حلوان

وعدنا الى القاهرة وانضمّ كل حلاج قديم وحديث اشار به مهرة الاطباء وكلهم من صفوة المعارف وخلّص الاصدقاء ولكن ماذا ينفع الدواء والداء عياء

قاقرّ الطبيب عنك بعجزٍ وانقضى تردّدُ العوّادِ

ولم يذهب المرض الطويل والالم الشديد بشيء من بشاشة وجهها ولا من طلاوة حديثها ولا من حصافة رأيها فكانت تبش بوجه العواد مهما كانت آلامها قوية وتسامرهم وتطايبهم وترتاي الآراء السديدة وتنصّ الاحاديث المفيدة وهي عارفة بسير مرضها وبان الشفاء فيه نادر ولما قطعت الرجاء من الحياة كاشفتنا بذلك فاردنا ان نثني آمالها فقالت اليكم عن المحال فقد ازف الرحيل وستحضرني الوفاة هذه الليلة ونادت زوجها واخاها وكل واحد من اصدقائها باسمه وتكلمت معنا كلاماً يلين الجماد ويفتّت الاكباد ثم اغمضت عينيها واسلمت الروح في الساعة الاولى من يوم ٢٣ آذار (مارس) في غرة فصل الربيع وهي في غرّة ربيع الحياة

قُصِفت ياغصنَ بانٍ في الصبا اسفًا لما انثنيت وقد مالت بك النِسَمُ
كنّا نرجّي ثمارًا منك يانعةً فسابقتنا المنايا وهي تقتحمُ

وكنتُ كلما نظرتُ الى جسمها الذي انحلّه السقم ولم يبقِ الّا صورة اللحم والدم وقابلته بما كان عليه في الصيف الماضي من غضاضة الصبا ونضارة الحياة اهاج فذى عيني الاذكار وعصاني الصبر وفارقني الجلد

وعهدي بصبري في الخطوب يعينني فمالي اراهُ اليوم اظهر عصياني

وبتنا ذلك الليل نتململ على جمر الغضا ولسان حالنا يردّد قولَ من قال

فيالكَ من ليلٍ كأنّ نجومهُ بامراس كتّانٍ الى صمّ جندلِ

وفي الصباح انتشر نعيها في القاهرة وتوارد علينا الاحباء والاصدقاء يشاركوننا في الاسى ويبردون جمرة الحزن وبعد عصر النهار سرنا بها الى حيث تواري الاجساد ووارروها قبرًا تقيم فيه الى يوم المعاد

فياخير الرفيقات اولا امل التلاقي لفطر الحزن آكادنا وفرّح الدمع آماقنا . لقد ذهبتِ في سبيل كل حي ولكنكِ ابقيتِ بعدكِ مآثر لا تفنى واسمًا كريمًا طيب الذكرى وطهرًا وعفافًا وكرامة اخلاق والطافًا يتعزّى بها الانسباء ويتّعظ منها المعارف والاصدقاء سقى الله ثراكِ طيب الرحمة والرضوان وافاض على قلوبنا وابل العزاء والسلوان

سكّبَ الاله عليكِ رحمتهُ كما كانت مراحم قلبكِ المتواليه